(٧)

رئيس من تكساس

obeikan.com

واضحة كثيراً تلك الملامح الريفية التكساسية في سلوك الرئيس «جورج دبليو بوش» وكبار مسؤولي إدارته. هذه الملامح لا تبدو فقط في أحذية الكاوبوي التي يلبسها «بوش الابن» في البيت الأبيض، لكن أيضاً في يده الموضوعة على المسدس وإصبعه على الزناد، منذ أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.

في إطار «ملتقى أمستردام» الحواري، قال المفكر «نعوم تشومسكي» وهو ينتقد صراحة السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، مشدداً على أن بلاده تعمل، بعد أن وضعت الحرب أوزارها في العراق، على السيطرة على العالم عن طريق القوة، ماضية بالعالم نحو حرب نووية، محذراً من أن هذه السياسة ستؤدي إلى انتشار أسلحة الدمار الشامل والمزيد من الكراهية والحقد على الإدارة الأمريكية، وأن الرئيس «جورج دبليو بوش» ماضٍ بسياسته الخاصة بسياسة الهجمات الاستباقية.(١)

وفي ما يخص مفهوم إدارة «بوش الابن» حول نشر الديمقراطية، نجد أنه لم يكن هناك أبداً حقد وازدراء حيال الديمقراطية أكثر وضوحاً من الذي عبرت عنه النخبة في الولايات المتحدة. فأوروبا، مثلاً، انقسمت على نفسها بين مَا أطلق عليه "أوروبا القديمة" و"أوروبا الجديدة"، وذلك على أساس الموقف من الحرب على العراق، حيث مثلت أوروبا القديمة البلدان التي اتخذت الحكومات فيها موقف الغالبية من السكان، وهذا يسمى ديمقراطية. أما أوروبا الجديدة «إيطاليا، المجر وإسبانيا» فلقد تمثلت البلدان التي تجاهلت حكوماتها نسبة أكبر من سكانها. فالشعوب، في هذه البلدان، عارضت الحرب أكثر من شعوب ما يسمى بأوروبا القديمة، لكن الحكومات لم تعِر اهتماماً لسكانها، واستمرت أوامر واشنطن في ما يسمونه بالتصرف الجيد. لكن تركيا قدمت المثال الأكثر لفتاً للانتباه. فكانت تركيا هدف هجمات متمادية للمعلقين والنخب الأمريكية، لأن الحكومة أخذت الموقف نفسه الذي أخذته غالبية الأتراك، ما جعل «بول وولفويتز» الذي أرسى «مشروع لقرن أمريكي جديد»، ومعه ديك تشيني ورامسفيلد، يدين الجيش التركي لأنه لم يتدخل لإجبار الحكومة على الوقوف إلى جانب الأمريكيين، بدلاً من تغييرها الاهتمام اللازم للموقف الشعبي التركي المعارض للحرب على العراق. وهذا ليس لأن الولايات المتحدة تتفرد بالقتل وسفك الدماء، فهي في هذا كأية قوة استعمارية، لكن إذا ما دققنا في تاريخ المناطق التي تسيطر عليها الولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن: أمريكا اللاتينية والكاريبي حيث

(١) أنيس الدغيدي، تاريخ بوش السري الأسود ورجال البيت الأبيض، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤ ص ١٩٤.

استعدت الولايات المتحدة للتسامح مع الديمقراطية هناك، لكن أن تكون مدافعاً عن ديمقراطية إدارة «رونالد ريغان» أي عن ديمقراطية شاقولية تستمر النخب التقليدية فيها على رأس السلطة، وهي المتحالفة مع واشنطن، وتقود مجتمعاتها تماماً كما ترغب وتشتهي الولايات المتحدة.

ومع انتهاء محاكمة الرئيس «بيل كلينتون» (١٩٩٢–٢٠٠٠)، وفضيحة العصر التي تسبب بها نتيجة علاقته مع المتدربة اليهودية في البيت الأبيض (١٩٩٨)، وهو الذي جاء بعد «جورج بوش» الأب ليثبت رجولته بحرب الخليج الأولى، وبالبراءة من تهمتَي الحنث باليمين وعرقلة سير العدالة.. في قضية المتدربه «مونيكا لوينسكي»، وبالتالي خروجه ونجاته من دائرة «العزل»، تبدو الديمقراطية الأمريكية وتظهر في أحلى حليتها وفي أعلى تجليات بريقها وضوحاً؛ كما يبدو الدستور الأمريكي «سيداً» لا ينازعه أحد في تنظيم حياة «خليط» المجتمعات الأمريكية، وتحديد حقوق وواجبات وصلاحيات ومسؤوليات السلطات الرئيسية الثلاث. والمتهم في تلك المحاكمة التي فرضت نفسها على اهتمامات العالم بأسره، هو كما يوصف في الأدبيات السياسية من واقع المكانة الدولية التي تحتلها الولايات المتحدة الأمريكية «أقوى رجل في العالم»؛ واستدعت تلك المحاكمة جمهوراً أممياً من المتابعين والمهتمين، وبينهم بطبيعة الحال جمهور من المسؤولين العرب، الذين ارتضوا أن يضعوا مصير قضايا شعوبهم وثرواتهم وجغرافية أوطانهم بين يدي الرئيس المتهم، أولئك المستهدفة بلادهم، بكل ما تزخر به من مقدرات، بالعدوان الأمريكي والهيمنة الأمريكية والاحتواء الأمريكي والابتزاز الأمريكي والاستخفاف الأمريكي.

من هنا لم يكن غريباً عدم وجود أي فاصل بين أزمة الرئيس الذي يُحاكم والتحديات التي تواجه منطقتنا العربية وأمتنا العربية، بغض النظر عما طالعناه وقرأناه في الصحافة الأمريكية خاصة والغربية عموماً عن يدي رئيس البيت الأبيض الملطختين بالفضائح، والأخص فضيحة «مونيكا لوينسكي». بمعنى أن الربط المحكم بين أزمة الرئيس وما يحيق بمنطقتنا، قد أثر على الدور الأمريكي في عملية السلام ..، في مغالاة الرئيس بوقوفه إلى جانب المؤسسة الصهيونية متمثلاً بتطرف لجهة الكيان الإسرائيلي، لضمان اللوبي اليهودي الأمريكي بعيداً عن دائرة خصومه في أمريكا. إلى أن ذهبت تحليلات بعض المعلقين الأمريكيين والغربيين إلى حد الربط بين الفضيحة والمحاكمة من جهة التوقيت وبين العدوان الأمريكي على السودان وأفغانستان والعراق.

وبعد أن أسدل الستار على فصول محاكمة العصر، التي لن تُطوى آثارها لا مع قرار مجلس الشيوخ ببراءة رجل أمريكا الأول، ولا مع طلبه مجدداً من الأمريكيين بالعفو عنه، وبفعل الإثارة غير المسبوقة، زاد الجمهور اتساعاً بما لم توفره السياسة وحدها؛ حيث اجتمعت السلطة بذروة عناصرها وقوتها والجنس بكل غرائبه وإباحيته، وانتقام تمارسه سيدات متدربات في البيت الأبيض الأمريكي، ومؤامرات يحيكها بيروقراطيون، وملايين الملايين تنفق على التحقيقات وأخرى تسلك طريق التعويضات وملايين يحصدها من ارتقوا إلى آفاق الشهرة بفعل الإباحية الجنسية إلى مزيد من تربع المؤسسة على صهوة الحضارة وشرف الديمقراطية، ما يؤكد أن المحاكمة خلخلت الأركان الأمريكية وهزت صورة أمريكا ودللت على مواطن الخلل الرئيسية في أدوار ومهام وعلاقات سلطاتها الثلاث وفي الحياة الحزبية الأمريكية، ولطخت مكانة مؤسسة الرئاسة الأمريكية التي دللت بالتالي على غواية تلك الديمقراطية منذ تشكيل ذلك المزيج السكاني المسمى أمريكا.. والقيم التي تدعيها.

وبعد الهزيمة المريرة التي مني بها الجمهوريون في انتخابات الرئاسة وانتخابات الكونغرس الأمريكي (نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٨)، فإنهم خسروا منصب الرئاسة كما خسروا أغلبيتهم في مجلسَي الشيوخ والنواب لمصلحة الديمقراطيين، في ضربة قاصمة تلقّاها جناح المحافظين الجدد الذي وقف طوال السنوات الثماني التي حكم فيها الجمهوريون البيت الأبيض وراء كل السياسات والتوجهات الحربية والنزعة العدوانية وسفك الدماء التي ميزت حكم الجمهوريين خلالها. وكان هذا الجناح المحافظ الجديد الذي تمثله نخبة من الأيديولوجيين المغرقين في يمينيتهم والقادمين في أغلبيتهم من مؤسسة «أميركان إنتربرايز إنستيتيوت» مسؤولاً عن الدمار الهائل الذي أصاب الاقتصاد الأمريكي وعجوزاته الهائلة، وتشكّل تركة ثقيلة لا يُحسد عليها من يرثها. فما بالك برئيس، (وهو هنا بطبيعة الحال الرئيس باراك أوباما) وعد ناخبيه بالتغيير الذي سيقلهم من حال الاقتصاد المنهار ومن حال الأزمة إلى حال الرخاء؟

كانت التوقعات في معظمها، أمام طنين الديمقراطية الأمريكية، بعد تلك الهزيمة المريرة التي مُني بها الجمهوريون قد ذهبت آنذاك إلى فرضية إنكفائهم، ولو إلى حين. ولكن تبين لاحقاً أن هذه الفرضية المتوقعة كانت خاطئة، إذ سرعان ما استوعب الجمهوريون الصدمة واستعادوا زمام المبادرة بالهجوم المضاد. ولأن العودة بنفس «اللباس» كانت ستكون صعبة، فقد كان لزاماً تغييرها. وليس هناك أجدى من عباءة الدين وسيلة للتدثر بها، وباسم الديمقراطية، والعودة المظفرة إلى مسرح الحدث، إلى

مسرح الديمقراطية.!

فمعلوم أن الحزب الجمهوري هو حزب أصولي بالأساس، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة. ومن هنا جاءت صفة وتمييز أعضائه وأنصاره بالمحافظين، وهي مفردة ملطفة لمفردتَي التشدد والتطرف. وعندما غالى الجمهوريون في تطرفهم باسم الديمقراطية، رداً على مأزق الليبرالية الأمريكية، حيث اتخذ الجناح الأكثر نفوذاً منعطفاً يمينياً حاداً، نجح هذا الجناح المحافظ في الوصول إلى السلطة في عام ٢٠٠١، تحت رئاسة «جورج دبليو بوش»، وقام باسم «الديمقراطية» و«الأصولية»، بتنحية من يطلق عليهم بالجمهوريين التقليديين جانباً، آخذاً الحزب نحو اتجاهات مغرقة بالاقتحام وسفك الدماء، ونهب ثروات الشعوب والهيمنة على مقدراتها.

وباسم الديمقراطية، وعلى نفس المنوال، تجري الأحداث اليوم وتتداعى. إذ لم يجد الجمهوريون من الجناح المحافظ الجديد، وقد خسروا السلطة، سوى زيادة جرعة الغلو والكراهية والتطرف، باستغلال مشاعر الإحباط ونفاذ الصبر لدى الأمريكيين، من جراء تعثر برنامج الإصلاح الاقتصادي الذي طرحه الرئيس «باراك أوباما». فكانت البداية إعادة إحياء وبعث ما يسمى «حركة الشاي»، وذلك استلهاماً لأيديولوجيا التمرد والعصيان التي رمزت اليها احتجاجات الخليط من الأمريكيين ضد خطط الاستعمار الانكليزي للأراضي الأمريكية، الرامية آنذاك لزيادة الضريبة على الشاي عام ١٧٧٣.

لقد أراد صقور المحافظين الجدد في الحزب الجمهوري من وراء بعث هذه الزمرة توجيه رسالة بالغة الدلالة، باسم الديمقراطية، مفادها أن ورثة الجماعات والتنظيمات الأمريكية ذات الطابع العنصري والإقصائي، ومنها جماعة «كو كلوكس كلان» العنصرية التي شنت هجمات إرهابية عنصرية ضد الأقلية السوداء، حتى ستينيات القرن الماضي[١]، على أتم الاستعداد والجاهزية للتمرد والعصيان ضد خطط وبرامج الحزب الديمقراطي، الذي استشعر بدوره «خطر» الصعود الشعبوي المغلف ببكائيات زائفة على أطلال الديمقراطية الأمريكية في خطاب الجمهوريين السياسي الموجه لهذا الشعب الأمريكي المزيج، الذي حلّ على الأراضي الأمريكية من كل حدب وصوب، دون أن يتأخر بإطلاقه «حزب القهوة» رداً على حزب الشاي[٢] متخذاً شعاراً استنهاضياً

(١) وليم غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، دار النفائس - بيروت ١٩٩٠، ص ٦٣ وما يليها.
(٢) وسائل الاعلام، ٢٠١٠/١/٢٦.

(إصحَ وانهض). وتعمل هذه الحركة الجديدة على شرح فكرة أن الحكومة ليست عدواً للشعب، وإنما هي تعبير عن إرادة جماعية يتوجب معها المشاركة في العملية الديمقراطية كي يتسنى مواجهة التحديات.

يهدف «حزب القهوة» إلى تحقيق التعاون بين أجهزة الدولة وإزالة نفوذ الشركات الطاغي في السياسة الأمريكية. ولعل الأكثر استحواذاً على الاهتمام ولفتاً للانتباه في هذا «التطور» الأيديولوجي التصعيدي بين قطبَي الرحى الرئيسيين في النظام الرأسمالي الأمريكي، الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي، هو أن قيادات الحزبين، التي تعتلي الرئاسة في البيت الأبيض، ويدها موضوعة على المسدس، وإصبعها على الزناد، همّها السيطرة على العالم عن طريق القوة والبلطجة باسم نشر الديمقراطية الأمريكية، حريصة على التحكم في اتجاهات المزاج الجماهيري للحيلولة دون جموحه إلى خارج دائرة النافذتين اللتين فتحهما الحزبان لاستيعاب فيض مشاعر الغضب والإحباط لدى الأمريكيين تجاه «عدم صلاحية النظام» ببنيته التقليدية المتوارثة منذ أن استقلت الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الاستقلال الذي حققه بالحرب «جورج واشنطن».

في الأزمات تسقط دائماً أوراق التوت وتظهر الأمور على حقيقتها دون زيف ويبدأ التاريخ يظهر من جديد ليشكل مرآة تعكس حقيقة أمة يؤكدها الحاضر وتعززها الممارسات. فمنذ عقود طويلة والعالم ينظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أنها دولة الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات. ولكن الوجه الحقيقي للولايات المتحدة بدأ يظهر في الأزمات ليذكر العالم بتاريخ التركيبة العجيبة للأمة الأمريكية وتاريخ الدولة الأمريكية التي تأسست أصلاً على جثث السكان الأصليين للقارة وبنت إقتصادها على حساب الشعوب المستضعفة، وتاريخها طويل من التمييز ضد الملونين، وأرضها مسكونة بكوابيس العنصرية.

تُجمع الدراسات على أن الولايات المتحدة الأمريكية كأمة بنيت على ثلاث حقائق أساسية تؤكد كلها أن فوقية الرجل الأبيض، كفكرة عنصرية، هي الأساس الذي تشكلت عليه الدولة الأمريكية:

الحقيقة الأولى وهي أن الولايات المتحدة دولة وجدت بالاحتلال العسكري الذي تم على مراحل عدة، المرحلة الأولى تمثلت بالاحتلال الأوروبي، وفي مقدمتها الانكليزي، للأراضي التي كان يقطنها سكان البلاد الأصليون. وقبل هذا الغزو الأوروبي كان يقطن أراضي شمال القارة الأمريكية مئات الآلاف من الهنود الحمر. ومع نهاية

حروب الغزاة الأوروبيين مع الهنود الحمر، كان هناك قرابة ربع مليون نسمة من السكان الأصليين فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية، قرابة نصفهم فيما يعرف الآن بكندا[١] ويجمع الكتاب والباحثون على أن هذه الحروب التي كانت بفعل الغزو والاقتحام وسفك الدماء هي التي مهدت لبناء الولايات المتحدة الأمريكية. بمعنى أن ما يطلق عليه «الأمة» الأمريكية، بُنيت أساساً على إبادة السكان المحليين واغتصاب أراضيهم.

الحقيقة الثانية تقول: إن «الأمة» الأمريكية لم تكن لتتطور إقتصادياً دون استعباد العمالة الأفريقية. فعندما بدأت الزراعة والصناعة بالازدهار في العهد الاستعماري، ظهرت الحاجة لعدد كبير من العمال. فكان الحل هو استقدام أفواج العمالة الأفريقية كعبيد لدعم القوة العاملة الضرورية لإحداث النمو الاقتصادي على الأراضي الأمريكية.

الحقيقة الثالثة، وتتمثل في قيام الولايات المتحدة بالاستيلاء على نصف أراضي المكسيك بالحرب، الأمر الذي مكن الولايات المتحدة من التوسع إلى المحيط الهادئ، وبالتالي فتح باب التجارة على مصراعيه مع آسيا، وفتح الأسواق لتصدير واستيراد سلع أخرى لبيعها في الولايات المتحدة. وأطلقت الولايات المتحدة على الجزء الذي استولت عليه من المكسيك عام ١٨٣٦ اسم «تكساس»، ومن ثم حوّلت هذا الجزء إلى ولاية عام ١٨٤٥. وبعد ثلاث سنوات، اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية المكسيك ثانية واغتصبت جزءاً من أراضيها بمعاهدة عقدت عام ١٨٤٨. وفي عام ١٨٥٣، استولت الولايات المتحدة على جزء ثالث هو «أريزونا»، وبذلك تكون قد استكملت الحدود الاقليمية لما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية.[٢]

بعد أن استكملت الولايات المتحدة حدودها الإقليمية بالاستعباد والعنصرية وسفك الدماء والتوسع، وتشكّلت الانطباعات عن الدور الذي قد تلعبه الرأسمالية العالمية إبان الحرب العالمية الثانية والفترة التي اعقبتها مباشرة، كانت الإمبراطورية البريطانية في تلك السنوات لا تزال في أوج مجدها، وبدا العالم منفتحا أمام كل مشاهد وهو يرى كثرة البقع الحمراء على خريطة العالم؛ إذ كانت إمبراطورية التي لا

(١) أنيت جيمس، حروب الإبادة الجماعية، عرض: جريدة الخليج الإماراتية، العدد ٨٦٨٤، ٢٠٠٣/٢/٢٧.

(٢) اليزابيث مارتنيه (ناشطة في حقوق الإنسان وباحثه أمريكية) عرض: جريدة الخليج الإماراتية، العدد ٨٦٨٤، ٢٧ فبراير/شباط ٢٠٠٣، وانظر: عبدالحي زلوم، أمريكا إسرائيل الكبرى، عرض جريدة الخليج الإماراتية، العدد ١٠٩٢٥، ٢٠٠٩/٤/١٧.

تغيب عنها الشمس. لكن هذا المشاهد أدرك أن هذه الإمبراطورية آخذة بالتقهقر، وأنها سائرة نحو التفكك.

تنازلت بريطانيا عن سلطانها العالمي لصالح الولايات المتحدة، وبدأت الألوان على خريطة العالم تتغير مع سرعة زوال ورحيل الاستعمار القديم، بالسقوط والانهيار حطاماً. ومع احتدام الصراع وغروب الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، ازداد بروز الجانب السيء والمقيت للحكم الإمبريالي حين عملت بريطانيا وفرنسا والعدو الصهيوني على احتلال قناة السويس سنة ١٩٥٦، في العدوان الثلاثي على مصر الثورة، بعد تأميم قناة السويس لتكون شركة مساهمة مصرية. ويفعل الصمود منقطع النظير للشعب المصري، مدعوماً بدعم عربي مشهود، كان سقوط الرجلين القويين في بريطانيا (أنتوني إيدن) وفرنسا (غي موليه). وفي تلك الأثناء، كانت الولايات المتحدة هي التي أنحت باللائمة على كل من بريطانيا وفرنسا للجوئهما إلى الحرب التي كان هدفها إجهاض ثورة ٢٣ يوليو بمشروعها التحرري وإسقاط رائدها جمال عبدالناصر، الذي كان في نظر الغرب شراً مستطيراً ومصدر الخطر الأول بوجه المشروع الأمبريالي – الغربي – الصهيوني.

غير أني أسائل نفسي اليوم، عن شعورنا هذه الأيام، ونحن نرى كل تلك البنوك والشركات العملاقة والعابرة الأمريكية، ذات العناوين الضخمة على مواقع الانترنت والتي انهارت وأفلست، أو نسمع تلك الفضائح المالية والتدهور الكارثي في الأسواق المالية الأمريكية والعالمية، وكل تلك المطالبات والتحريض على شن الحروب والقتل الجماعي، لنرى أفضل مثال في صورة ظهرت على مجلة «نيويورك تايمز» بتاريخ الخامس من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، وتحمل عبارة «الإمبراطورية الأمريكية»(١). ويعيد «مايكل أغناتيف» التأكيد على ما جاء في مقالة كتبها في مجلة نيويورك تايمز أيضاً بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٢٨، حين قال: «إن حروب أمريكا ليست سوى نوع من ممارسة الإمبريالية، أو سعي لتكوين إمبراطورية».

ولما كانت مجلة ذات انتشار واسع جداً قد أبرزت فكرة الإمبراطورية الأمريكية، فإن لهذا أهميته اللافتة ودلالته الدافعة. ولم يكن «مايكل أغناتيف» الوحيد الذي أبرز هذه الفكرة وأكدها. فقد حذا حذوه «ماكس بوت Max Boot» في صحيفة وول ستريت جورنال، حين قال: «إن جرعة من الإمبريالية الأمريكية قد تكون أفضل رد

(١) مايكل اغناتيف (مقالتان) له في مجلة نيويورك تايمز الأولى في ٥ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٣، والثانية في ٢٨ يوليو/تموز ٢٠٠٢.

على - الإرهاب»، وعلى أمريكا أن تكون أكثر انتشاراً وتوسعاً.[١] أما المؤرخ «نيال فيرغسون Nial Ferguson»، فيتحدث ليس عن بطولات بناة الإمبراطورية البريطانية التي سارع أبناؤها للمشاركة في غزو واحتلال أفغانستان، وإنما أيضاً عن السلم والازدهار الذي يرى أن هذه الإمبراطورية هي التي قدّمته للعالم!! وهو يرى أن «على الولايات المتحدة الأمريكية أن تصلب موقفها وتنفق الأموال، وأن تنتقل من مرحلة إمبراطورية غير رسمية إلى إمبراطورية رسمية».[٢]

وبمناسبة مرور سنة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، كتب الرئيس جورج بوش الإبن القادم من ولاية تكساس الأمريكية، حيث تفوح رائحة النفط والكاوبوي، مقالة نشرها في صحيفة «نيويورك تايمز» قائلاً: «لقد أوضحَت هذه الذكرى الدور الأمريكي في العالم. ثم قال في مقالة ثانية كتبها في ذات الصحيفة، وهو على وشك أن يشن الحرب على العراق: سوف نستخدم قوتنا ونفوذنا اللذين ليس لهما نظير لخلق مناخ من النظام الدولي والانفراج تزدهر في ظله الحرية والتقدم في دول كثيرة. فالعالم الذي ينعم بالسلام.. والحرية.. يخدم مصالح أمريكا على المدى البعيد، ويعكس «المثل» الأمريكية .. ويوحّد حلفاء أمريكا.. نحن نريد سلاماً عادلاً.. ينعدم فيه الاضطهاد والفقر والبغضاء.. ويحل محلها الأمل بالديمقراطية.. والتنمية.. وأسواق حرة وتجارة حرة، إذ أن هاتين الأخيرتين قد أنقذتا مجتمعات بكاملها من الفقر..!! ». وينتهي بوش إلى القول: «إن أمام الإنسانية.. فرصة ثمينة لانتصار الحرية.. على خصومها التقليديين»[٣] كما تصدّر هذا المقال في نيويورك تايمز، وثيقة «استراتيجية الدفاع القومي»، وأكد الإلتزام بها في خطاب ألقاه في الكلية العسكرية في «ويست بوينت» وبنفس المناسبة.

هذا التماهي الذي يتحدث عنه الرئيس بوش الابن حول الانفراج الدولي والحرية والتقدم والسلام العادل والديمقراطية، ما هو إلاّ أكاذيب تكشفها حقائق ممارسات الإدارات الأمريكية المتعاقبة، التي بنت سلطتها على الاقتحام والقتل الجماعي أو الإبادة الجماعية وسفك الدماء واستعباد الشعوب ونهب ثرواتها وتمزيق أواصرها، والعنصرية ورفض الآخر؛ ما نشهده جهاراً نهاراً من على المنابر الدولية في مجلس الأمن والأمم المتحدة ومنظماتها المتفرعة حيال القضية الفلسطينية، وأرخص احتلال

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يمكن مراجعتها على الإنترنت: www.whitehouse.gov/nsc/nsc

باقٍ على وجه المعمورة بالتحالف غير المسبوق مع الكيان الصهيوني السرطاني، الإرهابي والعدواني، وما شهده العالم من إبادة جماعية للهنود الحمر والزنوج الأفارقة ومن العنصرية التي مارسها الرجل الأبيض بفوقيته، قبل إعلان الاستقلال الأمريكي والإبادة الجماعية في هيروشيما وناكازاكي اليابانيتين وحرب الإبادة في فيتنام وكمبوديا، وقبلها اجتياح الولايات المتحدة للمكسيك، واغتصاب الفلبين وثرواتها، وغزو إمبراطوري مقيت لأفغانستان والعراق، إلى زرع الفتن وإشعال الصراعات الإثنية والعرقية، وآخر تلك «المثل» التي تتباهي بها الإدارات الأمريكية، وعلى طريقتها، الأزمة المالية والاقتصادية العالمية التي أحدثت انهياراً لأكثر من ٢٨٩ مصرفاً على الأراضي الأمريكية، وانهياراً لدول حليفة (اليونان، ايرلندا، والبرتغال، وإسبانيا على الطريق وغيرها..) في أكبر عملية قرصنة ونهب في التاريخ، إضافة إلى ما حاول «باراك أوباما» أن يدغدغ به مشاعر العرب والمسلمين في الشعار الانتخابي الذي رفعه ـ التغيير ـ ليكون أضغاث أحلام تجلّت تحت يافطة الديمقراطية بارتكاب الفظائع والمذابح والموبقات ونشر الفساد والمفسدين وارتهان ثروات العراق وتفتيت الوطن العراقي. وتحت يافطة حقوق الإنسان، انتُهك حق الإنسان العراقي حتى الثمالة، وكان كل ذلك منذ اللحظة التي أصدر فيها الحاكم الأمريكي المدني للعراق (بريمر) فرمان حل الدولة العراقية، جيشاً ومؤسسات.

إنه الرئيس الأمريكي باراك أوباما، الذي حمل برنامجاً للتغيير، وبدأ في طرحه للتطبيق العملي، داخلياً وعالمياً، بهدف إخراج الولايات المتحدة من أزماتها المتفاقمة إقتصادياً وسياسياً وأمنياً، والتي تعاظمت خلال وجود الإدارة الجمهورية برئاسة جورج بوش الإبن. فالملفات صعبة ومعقدة والتركة ثقيلة جداً على مختلف المستويات، ما يجعل مهمة التغيير صعبة أيضاً. فهناك لوبيات ومصالح تقبض على السلطة وتتحكم بالاتجاهات السياسية والاقتصادية للبلاد. وقد تعمّدت على مدى عقود أن تدير مؤسسات الدولة بمعزل عن المصلحة الأمريكية العامة؛ بل وعمدت إلى وضع التشريعات والنظم والقوانين التي تجعل الولايات المتحدة خاضعة لسلطة وسيطرة شركات ومجمعات صناعية وعسكرية، تابعة لأباطرة رأس المال. وبفضل ذلك يمكن القول إن الولايات المتحدة أصبحت عبارة عن دولة شركات لديها السلطة والسطوة بما يفوق قدرة أي رئيس يتبوأ رئاسة البيت الأبيض، مهما حمل من أفكار وشعارات.

تحققت الإمبراطورية الأمريكية الحقيقية، كما هي صورتها الآن، ليس من خلال نوبة من الذهول وشرود الذهن واللاوعي، وإنما من خلال حالة من الإنكار والرفض، أي رفض الحديث عن الأفعال المشينة للإمبريالية، والجرائم التي تقوم بها الولايات على أنها أفعال إمبريالية، وعدم السماح لإرهاصات هذه الأفعال أن يكون لها أدنى أثر على الداخل الأمريكي. وهو ما يتبدّى من إنكار خسائرها الحقيقية في أفغانستان والعراق، والحديث عن السجون السرية التابعة للمخابرات المركزية المنتشرة في أرجاء كثيرة من العالم، وجرائم التعذيب التي ترتكب في هذه السجون والمعتقلات، والتي ارتقت إلى مستوى الفضائح في سجنَي أبوغريب وغوانتانامو.

وفي جدول الأرقام القياسية على مسار التاريخ من بدايته إلى نهايته (إذا كانت للتاريخ نهاية)، فإن الصعود الإمبراطوري الأمريكي هو قصة تتفوق على غيرها، لأن الإمبراطورية الأمريكية تمكنت من أن تصبح الأقوى والأكبر. فالزحف الإمبراطوري الأمريكي بدأ حركته في أواخر القرن التاسع عشر، مباشرة بعد أن وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها. وعندما حلت تسعينيات القرن العشرين كان الانتشار الإمبراطوري قد غطى وجه المعمورة؛ وكانت الإمبراطوريات الأخرى، بما فيها الروسية قد تهاوت وانهارت، كما تهالكت وانهارت الإمبراطوريتان في أوروبا، البريطانية والفرنسية، بعد أن أخذت الولايات المتحدة الدروس والعبر لأحوالها. فكان أن مضى الزحف الإمبراطوري الأمريكي الجديد، بالعنف والاقتحام، مصحوباً بثورة وسائل الاتصال ورديفها التقدم والتوسع.

يحكي «ستانلي كارنوف» في الفصل الرابع من كتابه، حكاية التوسع الأمريكي في آسيا، ويختار لهذه الفصول عنواناً يقول: «أمريكا تتجه إلى العولمة، وأن ملء المساحة الأمريكية كان يمضي على أساس التقدم والتوسع والنار». ويضيف كارنوف «وفي سنة ١٨٩٠، وتحت ضغوط المنادين بالتوسع والانتشار، أقر الكونغرس اعتمادات لبناء خمس عشرة مدمرة حديثة، وست بوارج، ليشكل أسطولاً بحرياً يوازي الأسطول الألماني. ومن أشهر المداخلات أثناء مناقشة الكونغرس (سنة ١٨٩٨) »، وفي مسألة الإمبراطورية، خطاب للسيناتور «ألبرت بيفردج» عضو المجلس عن ولاية فرجينيا، عنوانه «زحف العَلَم»: «علينا أن ننصب خيمة الحرية أبعد في الغرب، وأبعد في الجنوب؛ إن المسأله ليست مسألة أمريكا، ولكنها مسألة تدعونا إلى الزحف تحت العَلَم حتى ننشر الحرية للجميع؛ علينا أن نقول لأعداء أمريكا وأعداء التوسع الأمريكي، إن الحرية تليق فقط بالشعوب التي تحكم نفسها، وأما التي لا تستطيع فإن واجبنا المقدس يدعونا

لقيادتها إلى النموذج الأمريكي. فنحن لا نستيطع أن نتهرب من مسؤولية وضعتها علينا العناية الإلهية لإنقاذ الحرية والحضارة؛ ولذلك فإن العَلَم الأمريكي يجب أن يكون رمزاً لكل الجنس البشري!!»[1] وراحت الولايات المتحدة الأمريكية تمارس مهام الإمبراطورية بإخضاع كل مقاومة. وينقل ستانلي كارنوف فقرة من تقرير كتبه أحد أعضاء الكونغرس من بعد زيارة قام به إلى الفلبين ما نصه: «إن القوات الأمريكية اكتسحت كل أرض ظهرت عليها حركة مقاومة، ولم تترك هناك فلبينياً إلا وقتلته، ولم يعد في هذا البلد رافضون للوجود الأمريكي». ثم أضاف: «إن الجنود الأمريكيين قتلوا الرجل والمرأة والطفل والسجين والأسير وكل مشتبه فيه، حتى في سن العاشرة، وذلك انطلاقاً من اعتقاد الأمريكي أن الفلبيني ليس أفضل من كلبه.[2]

ومع انتهاء حياة أول بُناة الإمبراطورية الأمريكية، باغتيال الرئيس «ويليام ماكينلي»، أصبح نائبه «ثيودور روزفلت» رئيساً للولايات المتحدة، وهو الأكثر تشدداً من رئيسه في الدعوة للتوسع والانتشار، بمد بصره إلى الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي نحو شواطئ أوروبا، بعد أن ناصر وساند كوبا وثوارها ضد طغيان الاستعمار الإسباني، وتمكن الأسطول الأمريكي من إنزال قواته على الجزيرة الكوبية تحارب جنباً إلى جنب مع الثوار ضد جيش الاحتلال الإسباني، في ظل إعلان بأن القوات الأمريكية سوف تخرج من كوبا فور خروج القوات الملكية الإسبانية. وانتصرت الثورة الكوبية، ووقعت المملكة الإسبانية معاهدة اعتراف باستقلال كوبا وسحبت قواتها منها. لكن القوات الأمريكية المناصرة للحرية.. والديمقراطية !!! بقيت بدعوى دعم الاستقرار ومعسكر «غوانتانامو» خير شاهد على موبقات الولايات المتحدة، التي مضى رئيسها «روز فلت» بعدها يخلع آخر المواقع الباقية لإسبانيا وللبرتغال من أمريكا اللاتينية، (في بورتوريكو وبنما وغيرها) في عملية تقدم وتوسع وانتشار، تحصد فيها إمبراطوريات قديمة بقضها وقضيضها، تماماً كما كانت الإغارة والإنقضاض على سفن القراصنة المثقلة بالغنائم. وعندما سئل الرئيس «روز فلت» عما إذا كانت سياسة الولايات المتحدة هي بناء إمبراطورية، أجاب بالقول: «إن بلدنا قام على فضيلة الحرية، لذا يصعب أن يقع في خطيئة الإمبراطورية»[3]

(١) ستانلي كارنوف، الإمبراطورية الأمريكية، ص ١٢٨، وأنظر: محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، ص ٥٣-٦٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، دار الشروق ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣، ص ٧١-٧٢.

عندما دقت ساعة رفع العلم الإمبراطوري بظهور تيارات فاعلة في الولايات المتحدة الأمريكية تتأمل أحوال الإمبراطوريات الأوروبية المتصارعه، لتكون بالتوسع والانتشار على الجانب الأوروبي، وريث تلك الإمبراطوريات المتصارعة الآيلة للسقوط، كانت الاستراتيجية الأمريكية حيال المشروع الأمريكي الإمبراطوري، التعامل بنفس المنطق والنهج مع مختلف الحركات والتيارات السياسية. حيث أن المشروع الإمبراطوري الأمريكي في صراعه مع الحركة الشيوعية، لم يتعامل معها دولة بعد أخرى، وإنما تعامل معها بصفتها كتله في حقبة الحرب الباردة، من خلال جس المواقع وصلابتها والبحث عن ثغرة فيها.

وهكذا جرى في حالة المواجهة مع المشروع القومي العربي، مشروع التنمية والتحرير، الذي حمل أعباء التحرر والاستقلال، واكتشاف الذات العربية والهوية العربية، يوم رفعت جماهير الأمة صورة رائد حركة النضال العربي، جمال عبدالناصر، وبعد أربعة عقود من رحيله، إلى مقام الرمز الأسطوري. فهو جمال عبدالناصر، الذي فجّر طاقات أمته واستنهضها ورفع بإرادة الرجال رأسها عالياً، بامتلاكه مشروعاً وطنياً وقومياً، منحازاً للفقراء والمحرومين من قوى الشعب العامل، مناهضاً ومقاوماً لقوى الاستعمار وأحلافه، ومجترحاً منظومة دولية غير منحازة؛ حتى صارت أمته، وبلده الجمهورية العربية المتحدة، كما كان يسمى اتحاد مصر وسوريا آنذاك، مركزاً هاماً من مراكز القرار الدولي.

يروي الكاتب محمد حسنين هيكل، طبقاً لرواية المفكر المعروف «والتر ليبمان» لجمال عبدالناصر، (وفي حضوره) (مارس/آذار ١٩٥٧)، في محاولة من «ليبمان» لتقليل هواجس شاعت في الشرق الأسط بعد حرب السويس (العدوان الثلاثي: البريطاني، الفرنسي، الصهيوني) عن مشروع نظام أمريكي جديد «لحماية» المنطقة عُرِضَ على بلدانها يحمل اسم «مشروع أيزنهاور». وكانت الهواجس العربية «إنه نفس المشروع الإمبراطوري القديم، معباً في زجاجات جديدة». وقال «ليبمان» لجمال عبدالناصر إنه يتصور أن «الولايات المتحدة لديها حلم إمبراطوري».(١)

وفي هذا المقام الجلل، يستحضرنا حال الأمة العربية اليوم، وبعد أربعة عقود على رحيل جمال عبدالناصر. في هذه الذكرى، تبرز الحاجة إلى وقفة تأمل ومراجعة لمرحلة من أهم مراحل التاريخ العربي المعاصر، بدأت مع بزوغ ثورة ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٢، إلى حين وفاة جمال عبدالناصر في ٢٨ سبتمبر/أيلول ١٩٧٠، كان التاريخ

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠ – ٨١.

العربي خلالها محملاً بالآمال والطموحات، والمد القومي بلغ ذروته، والصراع مع قوى الاستعمار وأعوانها من أعداء الأمة والطامعين بمقدراتها وثرواتها وموقعها الاستراتيجي، المكشوف والممتد على مختلف الساحات من المحيط إلى الخليج العربي. وكانت قيادته لحركة النضال العربي والتحرر العربي، قد أذنت بأفول ورحيل الاستعمار (الجزائر، ليبيا، العراق، اليمن والسودان وإمارات الخليج العربي [الكويت، البحرين، قطر، والإمارات وعُمان]، والمواجهة مع العدو الصهيوني اتخذت طريقها الحقيقي، وانفتحت كل آفاق الصراع مع الكيان الصهيوني وقوى الاستعمار بأحلافه على كل صعيد وفي مختلف الميادين، على مبدأ «نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا». وفي إطلالة من شرفة الحاضر إلى حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، يظهر كيف صار حال الأمة، وكيف انقلب هذا الحال، وصرنا شعوباً لا يُحسب لها أي حساب؛ أمة تدفع الجزية ليس صاغرة فحسب، بل راضية أيضاً، تطلب بملء خاطرها عودة قوى الاستعمار الجديد وقوى الهيمنة بسطوتها الأمريكية؛ وبتنا نطمئن لحماية الأجنبي. ولم يعد الكيان الصهيوني عدواً، ولم تبقَ فلسطين القضية المركزية، وتحول الصراع إلى نزاع فلسطيني– صهيوني وباتت ثرواتنا مهددة ومحتلة ومنهوبة. والعقل العربي تخلى عن مهمته وسلّمها للأجنبي، والجسد العربي أقعده المرض، وأصبحت سياسة كمّ الأفواه هي العنوان؛ كما أصبحت المقاومة، مقاومة الغزاة، مقاومة الاحتلال، غير مشروعة؛ علماً أن جمال عبدالناصر وصف المقاومة الفلسطينية بأنها أنبل ظاهرة في التاريخ العربي المعاصر، وأن المقاومة الفلسطينية وجدت لتبقى، وبتنا نتحدث عن الاستيطان لا عن رحيل الاحتلال. وفي العراق، في بلاد الرافدين، وبعد تسعة من الشهور الكئيبة، ولدت حكومة بعمليات قيصرية، ليس لها من العراق سوى اسمه، أما محتواه فقد تضافرت على صناعته أكثر من جهه من خارج العراق. إنه نموذج الديمقراطية التي بشرنا به جورج بوش الإبن في غزو إمبراطوري حشد له ربع مليون جندي، حط رحاله، بعديده وعتاده وأساطيله على الأرض العربية والمياه العربية، بقواعد عسكرية، حدِّث عنها ولا حرج.

إن حال الأمة، بكل الأحداث التي نشهدها والعالم من حولنا، يؤكد ما أطلق عنانه الرئيس الأمريكي الأسبق «جورج بوش» بعد انهيار الشيوعية كقوة عظمى مناوئة للرأسمالية الغربية بصولجانها الأمريكي، متزامناً مع غزو عراقي للكويت، بتداعياته الكارثية في أوسلو ومدريد وبعدها واي بلانتيشن، إلى وادي عربة؛ فأصبحت أمتنا جراء تلك التداعيات كَمَن يلعب الكرة بقنبلة.